الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني (1876 ــ 1918)

الدكتور محمد أحمد [1]

الملخص

يسهم هذا البحث في إلقاء الضوء على الحياة الثقافية والفكرية في دمشق في أواخر الحكم العثماني، ويسعى إلى إبراز البعد التاريخي لمدينة دمشق التي تعدُّ من أهم مراكز الإشعاع الثقافي في المشرق العربي، كما يتناول أهمية أدوات المعرفة الجماهيرية كالطباعة والصحافة والمكتبات، ودورها في ازدهار الحياة الثقافية والحفاظ على التراث الثقافي في دمشق.

وتأمل هذه الدراسة أن تسهم في إظهار عظمة دمشق بوصفها عاصمة الثقافة العربية لعام 2008 التي قال فيها السيد الرئيس بشار الأسد «دمشق عاصمة الثقافة العربية، ليست مجرد مدينة أو عاصمة أو مكان جغرافي يقع في قلب بلاد الشام، لدمشق معنى كبير وكلي، حاضر في الوجدان العربي بوصفها مدينة الثراء الروحي ومنبعه ومبدعته».

[1] قسم التاريخ ــ كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق.

مقدمة:

أولاً ــ اهتمامات الحياة الثقافية في دمشق.

ثانياً ــ العوامل المؤثرة في تطور الحياة الثقافية.

ثالثاً ــ دور التربية والتعليم في تطوير الثقافة.

رابعاً ــ أهمية الصحافة في الحياة الثقافية.

خامساً ــ الطباعة والمكتبات ودورها في الحفاظ على التراث الثقافي.

خاتمة

مقدمة:

يتناول هذا البحث التاريخي حياة دمشق الفكرية ومشهدها الثقافي في أواخر الحكم العثماني لإبراز البعد التاريخي لمدينة دمشق بوصفها مركز إشعاع ثقافي وفكري مهم في منطقة المشرق العربي، وكانت بلاد الشام مقدَّسة في نظر العثمانيين، فكانوا يطلقون على دمشق صفات دينية مثل «شام شريف» و«باب الكعبة» و«بستان الجنة» وغيرها من الصفات الحميدة.

ويحاول البحث كشف النقاب عن الحركة الثقافية في مدينة دمشق وعن التطورات التي جعلتها مدينة تعج بالسكان الذين وفدوا إليها من مناطق بلاد الشام كلّها، ولوّنوا نسيجها العمراني والاجتماعي والثقافي، كما تأمل هذه الدراسة أن تسهم في إظهار عظمة دمشق بوصفها عاصمة الثقافة العربية لعام 2008 والتي قال فيها السيد الرئيس بشار الأسد في حفل الافتتاح «دمشق عاصمة الثقافة العربية، ليست مجرد مدينة أو عاصمة أو مكان جغرافي يقع في قلب بلاد الشام، لدمشق معنى كبير وكلي، حاضر في الوجدان العربي بوصفها مدينة الثراء الروحي ومنبعه ومبدعته»[1].

كما هدف البحث إلى دراسة الجوانب الثقافية ــ المؤثرة في المشهد الثقافي لدمشق كالتربية والتعليم التي تشمل المدارس والطلاب والمدرسين وإدارة الأوقاف ومصادر الثقافة وأهمية كل من الطباعة والصحافة في إغناء وتنوع الثقافة في دمشق وانعكاساتها على المجتمع الدمشقي، ويسلط الضوء على دور المدينة في صنع الثقافة بأطيافها كلّها، مع التركيز على المتغيرات الثقافية حسب الحراك الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والفكري.

(1) - انظر النص الكامل لكلمة الرئيس بشار الأسد في: الوطن السورية ــ دمشق 2008/1/20 العدد (208)، ص3.

كما يسعى هذا البحث إلى تغطية الجوانب المهمة لسد النقص في البحوث التاريخية الاجتماعية والثقافية لتلك المدة المهمة، فالدراسات المتعلقة بتفاعل مدينة دمشق مع الثقافة والمشهد الحضاري العام في بلاد الشام دراسات قليلة ومتناثرة.

وأخيراً فإن سبب اختيار هذا البحث هو دحض الفكرة السائدة التي شاعت في الأدبيات التاريخية في بلاد الشام، في العقود الأخيرة من الحكم العثماني، وما تلاها، مقولة أن العرب عاشوا في عصور الظلام طوال أربعة قرون من الحكم العثماني، ومرد ذلك إلى اصطدام القومية العربية الناشئة آنذاك بالقومية الطورانية التي تبنتها جماعة تركيا الفتاة إثر إطاحتها بالسلطان عبد الحميد الثاني، وتسلمها الحكم في عام 1909، فتنكرت بذلك للإخوة الإسلامية مع العرب، وعادت بجذورها إلى القومية التركية ما قبل الإسلام، وتحوَّل المجتمع العثماني إلى صراع بين القوميات، بعد أن تعايشت شعوبه مع بعضها، ينتظمها انتماء عثماني في إمبراطورية متعددة الأجناس.

وعلى الرغم من تأثر فكر النهضة العربية بالفكر الليبرالي الأوروبي في القرن التاسع عشر، فإنه لم يظهر من العدم بل كانت دعامته ثقافة عربية تنامت أصولها عبر القرون الأربعة من الحكم العثماني، قوامها هوية وانتماء عربيان، تبناهما العديد من رجال الفكر، ولاسيما العلماء في دمشق في كتاباتهم، مما شكل قاعدة لمجتمع مدني تعايشت من خلاله أطياف المجتمع جميعها على اختلاف طوائفه.

أولاً ــ اهتمامات الحياة الثقافية في دمشق:

كثيرة هي مصادر الحياة الثقافية في دمشق إبان العصر العثماني، فمن ذلك كتب الأخبار والتراجم والرحلات، وكذلك كتب الفتاوى الشرعية الإسلامية التي ازدادت أعدادها بسبب الحاجة إليها لجلاء التناقض بين الشريعة التي اعتاد عليها المواطنون العرب والقوانين العثمانية التي شذت عنها، وهناك أيضاً سجلات المحاكم الشرعية التي كتبت بالعربية، ونظرت في مختلف القضايا لفئات الشعب كلّه، وكذلك سجلات

تركات المتوفين (المخلفات) التي أوردت قوائم بأسماء الكتب التي اقتناها بعضهم، وموضوعاتها، واهتمامات المتوفين بحسب أوضاعهم الاجتماعية والثقافية بها، والمطلع على هذه المصادر يجد نتاجاً معرفياً كبيراً يؤطر لمجتمع عربي الانتماء داخل الدولة العثمانية، قوامه ثقافة عربية إسلامية ضاربة الجذور تنتظم منه الفئات الاجتماعية، من حضرية وريفية، إسلامية وغير إسلامية في إطار مجتمع متكامل[2].

وقد تجلى هذا الانتماء العربي للعلماء العرب في كتاباتهم منذ مطلع الحكم العثماني حين وُضع ولاؤهم على المحك تجاه دولة عثمانية إسلامية، تختلف عنهم لغة وثقافة، فظهر بين العلماء العرب ما عُرف بأدب النصيحة إذ وجه بعضهم النصح إلى المستولي على الشام السلطان سليم الأول، وهو في أوج قوته، يذكّرونه بضرورة اتباع الشريعة قولاً وفعلاً، كما شجب علماء دمشق، وكذلك علماء الأزهر في مصر، فرض العثمانيين الرسوم على عقود الزواج، لمخالفة ذلك للسنة النبوية الشريفة في تيسير الزواج لا تعسيره، كما انتقدوا كذلك فرض الفائدة في قضايا الديون بقوة القانون العثماني مما يتعارض مع التعاليم الإسلامية التي اعتمدت الدين الحنيف دون فائدة والقرض الحسن (قرضة الله حسنة)[3].

وانطلاقاً من هذه الخلفية العربية الإسلامية التي شجبت ظلم الولاة ومخالفة القوانين للتقاليد المتبعة جاءت كتابات نجم الدين الغزي (المتوفى بدمشق عام 1651م)، صاحب كتاب «الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة» وذيله لتطرح إشكالية اجتماعية وثقافية كبرى بإطلاقه التساؤل الآتي: ما أسباب تأخر هذه الأمة؟

(2) - انظر سجلات المحاكم الشرعية في مدينة دمشق في المدة (1876 ــ 1908)- وثائق غير منشورة في مركز الوثائق التاريخية دمشق.

(3) - ماري سركو: تطور دمشق الاجتماعي والاقتصادي والعمران 1876 ــ 1908، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق 2006 ــ 2007، ص 12.

ويقصد بها الأمة العربية الإسلامية، التي كانت تنتابها الشدائد آنذاك، وقد أدى هذا التساؤل بالغزي إلى وضع مؤلف من سبعة أجزاء أسماه «حسن التنبه لما ورد في التشبه»، استخلص من خلاله نتائج أخلاقية قوامها استلهام ماضي الأمة حين كان العرب سادتها والتشبه بالفاضلين من أبنائها[4].

وقد حذا حذو الغزي وتأثر به بل كان أكثر دقة منه في قضية الانتماء العربي الشيخ عبد الغني النابلسي (المتوفى بدمشق عام 1731م) فهو كان من كبار المتصوفين في دمشق وعلمائهم، وأنجز ما يزيد على الثلاثمئة مؤلف، وقد دافع عن الفلاحين وانتقد الظلم الواقع عليهم من رجال الإقطاع مما أدى بهم إلى هجرة قراهم فألف كتاباً بعنوان «تخيير العباد في سكن البلاد» حث فيه الفلاحين على قتل الظلمة، كما دعا إلى التسامح الديني إسوة بشيخه محي الدين ابن عربي (المتوفى في دمشق عام 1240م) والذي بلغ قمة التسامح الديني وهو القائل: أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني[5].

وتوضح في كتابات النابلسي، كما الغزي، وغيرهما من علماء دمشق أهمية الوطن ودعوتهم إلى تمسك الإنسان بوطنه، وعدم هجرته إلا لسبب عظيم، وقد تلاقت أفكار النابلسي في شعوره بهويته العربية وبدعوته إلى التسامح الديني مع أفكار معاصر له هو الخوري ميخائيل بريك الذي بدأ تاريخه عن الشام بعام 1720، وهو عام وصول آل العظم، أولاد العرب كما يقول إلى الحكم، وذلك لاعتمادهم التسامح في

(4) - انظر نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، حققه جبرائيل جبور، 3 مجلدات، بيروت 1954.

(5) - انظر: محي الدين ابن عربي، فصوص الحكم، تحقيق أبي العلا عفيفي، دار إحياء الكتب العربية، 1948، ص 76.

حكمهم، كما أشار بريك إلى انتخاب أول بطريرك لأنطاكية عربي هو (ملاثيوس الدوماني) عام 1894 آنذاك خلافاً للبطاركة اليونانيين[6].

وبلغ هذا التنامي بالهوية والانتماء العربيين في كتَّاب علماء دمشق حد توجيههم معروضاً باسم مطالب آل العرب إلى آل عثمان في عام 1738 يطالبون فيه بإنصافهم ويذكرونهم بفضل العرب الأوائل عليهم الذين فضلوهم على أنفسهم حين دخلوا في الإسلام وأعطوهم المناصب الكبرى بما في ذلك منصب السلطان، وقد تزامنت مطالب العرب مع ظهور الحركات الإصلاحية السلفية، سواء في الجزيرة العربية آنذاك، أم في بلاد الشام في القرن التاسع عشر، وقد دعت بمجموعها بالعودة إلى صفاء الإسلام، كما في عصور السلف الصالح، حيث انطلق من الجزيرة العربية وتشكل هذه الحركات الإصلاحية رديفاً مهماً لحركة النهضة العربية فكلتاهما تستوحيان من ماضي العرب الثقافي[7].

ونتج عن هذا الزخم في الفكر العربي الإسلامي، في أواخر القرن التاسع عشر سواءً في دمشق أم في استانبول، حيث شغل المثقفون العرب دوراً فاعلاً في إدارة السلطان عبد الحميد الثاني مما دفع بالسلطان تقرباً من العرب ووفاءً لشيخه في الطريقة الشاذلية محمود أبو الشامات في دمشق أن أمر في عام 1901 بتأسيس أول مدرسة طبية في دمشق التي كانت نواة الجامعة السورية فيما بعد (جامعة دمشق حالياً)[8]. وتم اختيار المنطقة الواقعة قرب المشفى الوطني سابقاً (مركز رضا سعيد للمؤتمرات حالياً) في حي البرامكة لإنشاء هذه المدرسة، وكان قد سبقها تأسيس

(6) - ميخائيل بريك، تاريخ الشام (1720- 1782)، مطبعة القديس بولس ، حريصا، 1930، ص19.

(7) - انظر محمد قجة، دمشق والثقافة العربية في: المعرفة العدد(532) كانون الثاني 2008، ص284.

(8) - انظر عبد الكريم رافق، تاريخ الجامعة السورية، أول جامعة حكومية في الوطن العربي، دمشق 2004.ص16 ودليل جامعة دمشق 2007-2008 ، ص10.

المستشفى الحميدي(1898-1899) الذي شكّل نواة هذه المدرسة الطبية من الناحيــة العملية، التي طبقت المناهج ذاتها المتبعة في مدرسة الطب في استانبول، واســتخدمت اللغة التركية في التدريس نظراً إلى أنَّ معظم أساتذتها كانوا في البداية من الأتراك، ثم أبدلت بها اللغة العربية بعد عام 1919 وتعيين أساتذة وطنيين مــن العــرب، ودرّس مقرراته باللغة العربية، وعُين الدكتور رضا سعيد عميداً للمعهد الطبي العربي، وقــد تخرج في هذه المدرسة خلال السنوات الست عشرة مــن عمرهــا (1903-1918) (240) طبيباً و(289) صيدلانياً، علماً بأن مدة الدراسة في الطب كانت ست ســنوات وفي الصيدلة ثلاث سنوات.[9]

وفي هذا السياق تم تأسيس مدرسة الحقوق في بيروت عام 1913، التــي نقلــت إلى دمشق في خريف عام 1914 بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، وقد تم إنــشاؤها عام 1919 باسم معهد الحقوق العربي في دمشق الذي أصبح عام 1959 كلية الحقوق في جامعة دمشق تضم خمسة أقسام في القانون العام والخاص والــدولي والجزائــي والتجاري.

ثانياً ــ العوامل المؤثرة في تطور الحياة الثقافية:

على الرغم من اتضاح قدرة نظام السلطنة العثمانية المحافظة على الجمود الثقافي، فقد تميزت المرحلة من منتصف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بانبعاث أمل في الوصول إلى المعرفة وتطور حياة ثقافية جديدة، فكان للمطبعة والمدرسة والصحفية وحركات التبشير، والمسرح، والنادي الأدبي والسياسي، والجمعيات الأدبية التي بدأت بالظهور في دمشق منذ عام 1874 ومنها الجمعية التاريخية وجمعية النهضة العربية وجمعية الفنون الطبيعية، وهي جمعيات إسلامية

(9) - انظر: سهام ترجمان، يا مال الشام، دمشق، الطبعة الثالثة1990، ص6.

ومسيحية بعيدة عن السياسة الدور الأكبر في تشكيل منابع الثقافة في ولاية سورية عموماً ودمشق على وجه الخصوص، ولا ننسى هنا انطلاقة فن التمثيل في دمشق في عهد الوالي العثماني مدحت باشا 1878، وكان رائد المسرح العربي الدمشقي أبو خليل القباني (1833-1903) الذي قدم أول أعماله آنذاك (الشيخ وضاح ومصباح وقوت القلوب) و(ناكر الجميل) و(هارون الرشيد) و(أنس الجليل) وغيرها، وحقق نجاحاً كبيراً، لكن التيار السلفي المتعصب وبعض المغرضين عملوا بعد ذلك على إبعاده عن العمل المسرحي فترك دمشق إلى مصر، حاملاً معه عصر الازدهار للمسرح العربي.

ولئن كان التأثير بطيئاً في أول الأمر، فإن سرعان ما تطور تطوراً نوعياً بفضل ظروف ذاتية وموضوعية على مستوى الإمبراطورية العثمانية والعالم، كان أهمها دخول الجيش المصري دمشق (1831 ــ 1840) بقيادة إبراهيم باشا، وقيامه بنشر التعليم من خلال زيادة عدد المدارس، وفتح الأبواب لدخول تيارات الثقافة الأوروبية إليها، كما كان لاهتمام الأوروبيين بالإرساليات التبشيرية والبعثات الدينية فقاموا بفتح المدارس في سورية وجبل لبنان مما ساعد على نشر التعليم، فضلاً عن تسهيل دخول تيارات الثقافة الأوروبية التي كان لها أثر كبير في الحياة الاجتماعية والثقافية[10].

كما تأثر المناخ الفكري ومستوى ثقافة العامة الدمشقية بجملة عوامل منها نمو روح التحرر وتنامي تيار النهضة العربية، وتبلورت مطالب النهضويين العرب ولاسيما مطالب تحقيق اللامركزية السياسية والتدريس باللغة العربية، ونشر الثقافة العربية، وجعل مكان الخدمة الإلزامية في بلد المجند، وتوسيع هامش الحريات والمساواة والتكافؤ وتعريب القضاء وغيره، واعتمد النهضويون العرب لتحقيق أهدافهم

(10) - محمد سليمان حسن، الحركة الأدبية في دمشق (1800 ــ 1918): في المعرفة العــدد 532 كانون الثاني 2008، ص 471.

وسيلتين رئيسيتين: الأولى هي تأسيس الجمعيات التي كانت بمنزلة أحزاب والثانية هي تأسيس الصحف والكتابة فيها، وتأسيس المكتبات وطباعة المخطوطات ونشرها[11].

ولا نغفل هنا عن دور الجامع الأموي دُرَّة دمشق، الذي كان مركزاً للإشعاع الثقافي والعلمي، حيث كانت حلقات العلم والدراسة متاحة للصغار والكبار تنعقد في شتى الزوايا والجوانب، كذلك أُنْشِئَتْ حوله عشرات المدارس والمكتبات ولعل أبرزها المدرسة العدلية، التي كانت تضم مجمع اللغة العربية والمكتبة الظاهرية، ولم تكن مهمة الجامع الأموي لتقتصر على العبادة وإقامة الصلوات والشعائر الدينية، بل كان الجامع يحفل بالنشاطات السياسية والاجتماعية والثقافية[12].

ولا ننسى دور اللغة العربية في الحفاظ على هوية الثقافة العربية، فهي منبع الثقافة العربية وهي تعبير عن حياة مشتركة، والشعور بالانتماء للأمة العربية واللغة العربية ذات جذور عميقة في التاريخ، وهي الأساس المتين للهوية العربية، فهي لغة القرآن الكريم، ومكتوب بها نصف تاريخ العالم، ولغتنا هي لغة الشعر والفكر والفلسفة والعلم.

ثالثاً ــ دور التربية والتعليم في تطور الثقافة الدمشقية:

لم تعرف دمشق قبل سنة 1874م حياة تعليمية بالمعنى المعاصر لهذه العبارة، سوى التربية والتعليم في الجوامع والزوايا والكتاتيب والكنائس واستجابت الدولة العثمانية للضغوط الأوروبية وقامت بحركة إصلاحات على الصعيد التعليمي، فأعلنت سنة 1869 نظام إدارة المعارف أُنْشِئَتْ على إثره المدارس الحكومية، والخاصة التبشيرية، والمدارس الإسلامية الخاصة.

---

(11) - حسين العودات، المطابع والمكتبات والصحافة في دمشق في القرن التاسع عشر في المعرفة كانون الثاني 2008، ص 324.

(12) - انظر حسن زكي الصواف، الجامع الأموي دُرة دمشق، الطبعة الأولى دمشق 2008 ــ ص 9.

ويمكن تصنيف المدارس في دمشق في أواخر العصر العثماني إلى الفئات الآتية:

1 ــ الكتاتيب: وكانت تقام عادة بالقرب من المساجد أو في المساجد نفسها أو في الزوايا، أو في منزل الشيخ المعلم نفسه، ويبدأ تعليم الطفل فيها منذ سن مبكرة، ويقتصر تعليمه في المرحلة الأولى على القرآن الكريم تلاوة وحفظاً عن ظهر قلب، ثم القراءة والكتابة والحساب، والمعارف الدينية واللغوية[13].

وكان يُطلق على المعلم في الكتّاب لقب الشيخ أو المؤدب، وكان التعليم في الكتّاب مجاناً، إذا كان مؤسسها من الأغنياء قد أوقفها لهذا الغرض، أما إذا كان الكتاب للشيخ، فإنه كان يتقاضى من كل تلميذ أجرة زهيدة تعرف بـــ (الخميسية) لأن الشيخ كان يتسلمها كل خميس من الأسبوع[14].

أما المرحلة الثانية من التعليم فكان الطالب يحضّر فيها الفقه الإسلامي والحديث في موطأ مالك وصحيح البخاري، والجامع الصغير، وتراجم الرجال بشكل عام. وعندما ينتهي الطالب من المرحلة الدراسية في الكتاب كانت تقام له حفلة وهي وليمة يدعو لها والده مع الشيخ والأصدقاء وينشدون المدائح النبوية بهذه المناسبة[15].

2 ــ المدارس الدينية:

كانت المدارس الدينية تختلف في حجمها وأساتذتها حسب الأوقاف التي تنفق عليها وغالباً ما كانت تابعة للجوامع وجرى الإنفاق عليها بشكل شهري من تلك الأوقاف لشراء ما يلزم للكتابة والدروس.

---

(13) - عبد القادر محمد النعيمي، الدارس في المدارس، تحقيق جعفر الحسيني، دمشق 1948 ج1 ص9.

(14) - إحسان الدين أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقلة إلى العربية صالح سعداوي صالح، ط1، 1991، عمان، ص 309.

(15) - يوسف نعيسة، مجتمع مدينة دمشق ما بين 1772 ــ 1840، دار طلاس دمــشق 1986 ج2 ص389.

وكان أهم المدارس في دمشق، دار القراءة الصابونية بسوق الغنم، خارج باب الجابية، وقد أنشأها أحمد البكري المعروف بابن الصابوني، ودار القرآن والحديث التنكزية في سوق التبن وراء سوق البزورية وكانت عامرة بالقراء وتعليم الأولاد. توارث مشيختها أسرة الحلواني، وكانت أهم دور الحديث، دار الحديث الأشرفية الأولى (الجوانية) في أوائل سوق العصرونية من الجانب الغربي، ودار الحديث الأشرفية الثانية (البرانية) التي تقع بسفح جبل قاسيون وكانت موقوفة على قضاء الحنابلة[16].

اهتمت هذه المدارس بالعلوم اللغوية والدينية والمنطق والحساب ولم ينتظم الطلبة فيها في صفوف وإنما كانوا يحفظون المتون ويحضّرون المطولات، ثم يرتحل القادرون منهم لطلب العلم والاستزادة[17].

وكانت هناك مدارس تُلّقن فيها أصول الصوفية، وقد أوقفت لها الأوقاف الواسعة، وأطلق على بعضها اسم (الخانقاه) وعلى بعضها اسم (الزوايا)[18].

3 ــ المدارس الحكومية:

شهدت دمشق في عصر التنظيمات تطوراً فكرياً وثقافياً، وقد مهد الحكم المصري لسورية (1831ــ1840) لهذا التطور عندما سمح بدخول التأثيرات الأوروبية التي زادت من النشاط الثقافي. لذا شعرت الدولة العثمانية بضرورة إنشاء مدارس عسكرية، لتدريب التلاميذ وتعليمهم حسب النظم الحديثة، لمواجهة الخسائر

(16) - محمد أديب الحمصي، منتخبات التواريخ منشورات دار الآفاق بيروت 1979، ج3، ص 139.

(17) - أحمد طربين، ملامح التغير الاجتماعي في بلاد الشام في القرن التاسع عشر، ط1، معهد الإنماء العربي، بيروت 1983، ص 175.

(18) - الخانقاه: هو مكان لإيواء الفقراء، أما الزوايا فهي معابد يأوي إليها الزهاد والنساك المتعبدون وفيها مسجد ومضافة، انظر خير الدين الأسدي، موسوعة حلب المقارنة ص 79.

التي منيت بها أمام الدول الأوروبية. فبادرت الدولة إلى إنشاء المكاتب الإعدادية العسكرية، ثم المكاتب الرشدية العسكرية ومهمتها إعداد الطلاب لتلقي الدروس في الفنون الحربية[19].

وهكذا أدرك رجال الحكم في السلطنة العثمانية الحاجة إلى نوع جديد من التعليم، يختلف عن التعليم الديني السائد، تعليم يساير روح العصر واتجاهاته، إلا أن تنظيم المدارس لم يكتمل إلا بعد صدور قانون المعارف العمومية عام 1869 ولما تولى مدحت باشا ولاية الشام سنة 1878، أحب نشر العلم بين مختلف الطبقات الاجتماعية، وعُدَّ المؤسس لكثير من المدارس في دمشق مما شجع الأهالي على إرسال أبنائهم إلى المدارس في عهده، كما فرض عقوبة على ولي كل طفل يبلغ السادسة من العمر ولم يرسله والده إلى المدرسة، وكان أهالي دمشق يميلون إلى بث روح التعليم فألَّفوا جمعية سموها «جمعية المقاصد الخيرية» (والتي ما تزال حتى يومنا هذا) تخصص جزءاً من إيراد الأوقاف لبناء ودعم المدارس[20].

وكانت أشهر المدارس الإعدادية في دمشق هي (المكتب الإعدادي ــ مكتب عنبر) وهو معلم أثري يعد من أجمل البيوتات الدمشقية، يقع شرقي الجامع الأموي، وهو الأصل منزل شيّد على الطراز الدمشقي الشهير (بيت عربي)، وهو أول مدرسة ثانوية في دمشق تنتهي بالصف التاسع، بناه الثري الدمشقي يوسف عنبر عام 1872، وهو الآن مقر لجنة حماية مدينة دمشق القديمة، وتخرج فيه رهط من مشاهير الأدباء والسياسيين (منهم شكري القوتلي وحسني سبح وبدوي الجيل وغيرهم) وكان جودت الهاشمي من أشهر أساتذته. وكان التدريب بالمدارس الحكومية باللغة التركية، فضلاً عن مواد اللغة العربية من نحو وصرف والتاريخ والإنشاء والمحفوظات والجغرافية

(19) - عائشة الدباغ: الحياة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، دار الفكر العربي، بيروت 1971، ص 106.

(20) - صلاح الدين المنجد، ولاة مدينة دمشق في العهد العثماني، دمشق 1949، ص 93.

والحساب والهندسة إلى جانب اهتمامها بالدروس الدينية، كما أنشأت الدولة العثمانية بموجب قانون المعارف المعاهد العليا كمدرسة الطب ومدرسة الزراعة[21].

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن الأثرياء كانوا يرسلون أبناءهم إلى استانبول لمتابعة دراستهم طمعاً في الحصول على المراتب العسكرية أو الإدارية فكانت هناك مدارس لتعليم الفنون العسكرية والهندسة والطب والفنون البحرية.

أما المدارس الأجنبية فقد كان تابعة لمؤسسات تبشيرية مسيحية، وقد دخلها طلاب من كل الطوائف، وقد أسهمت في انفتاح مجتمع دمشق على المؤثرات الغربية.

أما عن أهل العلم من علماء ومدرسين وكتاب الذين قاموا بوظائف تعليمية فقد كانوا يتقاضون أجورهم من الأوقاف، وكان بعضهم يتمتع بإيراد كبير من واردات الأوقاف أو من إدارتها أو من مناصب قضائية شغلها. وكان العلماء في دمشق يتمتعون بمنزلة اجتماعية عالية، وهم من عائلات كبيرة وغنية، تسكن مركز المدينة وأسهموا في النشاط الديني والعلمي إما بكونهم معلمين وإما بكونهم متصوفة، أو الاثنين معاً. وغالباً ما كانوا يشرفون بأنفسهم على المؤسسات الدينية، وقد زاد نفوذهم لدى السلطات المحلية وفي الأستانة بسبب طبيعة الدولة العثمانية الدينية[22].

وكان المعيار في نجاح العالم المدرس، ثقافته الموسوعية المسندة بالعديد من إجازات العلماء له الذين درس عليهم أو شهادات حصل عليها في أثناء رحلة من رحلاته العلمية، وكانت الطريقة السائدة في التعليم هي تقرير المدرس الدرس على الطلاب وهم يسجلون، ولاسيما إذا كان الكتاب المقرر غير متوافر بين أيديهم.

(21) - أحمد حلمي العلاف: دمشق في مطلع القرن العشرين، دار دمشق 1983، ص 78.

(22) - أحمد طربين، الحياة العلمية في بلاد الشام في القرن 13 من خلال حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر للشيخ عبد الرزاق البيطار، ج2، ص 661.

ويشير المؤرخ المحبي الذي عاش مدة من الزمن في استانبول، واطّلع على التعليم في بعض مدارسها، إلى أن العلماء المدرسين العثمانيين، تأثروا في مدارسهم، بطريقة التعليم في دمشق، فقد كان العالم "الرومي" يجلس وحده في محل خالٍ من الناس فلا يدخل عليه إلا من يقرأ الدرس... ولا يحضرهم أحد من غير تلامذة المدرس، إلا أنهم بعد اتصالهم بالوطن العربي، أخذوا يلقون دروساً عامة لا يحضرها الطلاب فقط، وإنما العامة فيصبح الدرس حافلاً[23].

ولعل من المفيد الإشارة في نهاية هذه الفقرة إلى أن الدولة العثمانية تتحمل وحدها المسؤولية العظمى فهي كانت قليلة الاهتمام بالجوانب الثقافية كما أنها جردت دمشق وسواها من مكتباتها ومن خيرة المتعلمين فيها، واتسمت دوماً بالطبيعة العسكرية المتعنتة ثم بسياسة التتريك مما أصاب الثقافة العربية الإسلامية منذ القرن الثاني عشر بالوهن، كما كان انتشار ظاهرة التصوف من العوامل السلبية، كما أن الأحداث العاصفة التي مرت بها المنطقة من صراعات وحروب جعل الناس يتمسكون بالتقاليد القديمة، وسلاطين الدولة العثمانية لم يشجعوا على الثقافة وتطورها، ولم يقمعوا الإنتاج الثقافي الجيد فحتى بدايات القرن التاسع عشر، كان المستوى الثقافي والفكري متدنياً، وكانت المدارس المؤجرة من النوع الابتدائي، سواء كانت إسلامية أم مسيحية، و كان التعليم فيها منحصراً في النواحي الضيقة للعلوم الدينية، وكان تدريس هذه النواحي متدنياً في مستواه، وضيقاً في أفقه، كما كانت اللغة العربية نفسها في حالة سيئة[24].

رابعاً ــ أهمية الصحافة في الحياة الثقافية في دمشق

سلفت الإشارة إلى أنه منذ عهد إبراهيم باشا ظهرت عدة أنواع من الصحف أثرَّت في الحياة الثقافية الدمشقية، وهي الصحف الرسمية مثل «تقويم وقائع» وصحف

(23) - محمد المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، القاهرة 1284هـ. ج1، ص 190.

(24) - أنس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية، دار المعارف، مصر د. ت. ج1 ص 30.

عربية في استانبول وهي «مرآة الأحوال»، و«السلطنة» وصحف عربية في البلاد العربية في البلاد العربية مثل «حديقة الأخبار»[25].

وسمح السلطان محمود الثاني عام 1842 بإصدار صحيفة «تقويم وقائع» لتكون جريدة الدولة الرسمية، وذلك على غرار جريدة «الوقائع المصرية» التي أصدرها محمد علي باشا في مصر، وقد وصلت إلى بلاد الشام مع إبراهيم باشا، وأُعجب بها المثقفون الشوام[26].

وعكست الصحف التبشيرية التي كانت تحرر بواسطة القساوسة والمبشرين الأمريكان اهتمام البعثات التبشيرية في بلاد الشام، وأهم هذه الصحف هي صحيفة «مجموع الفوائد» وهي مجلة عربية اللغة صدرت في سورية، واستمر صدورها حتى عام 1855.

أما أول صحيفة عربية في العاصمة استانبول فهي صحيفة "مرآة الأحوال" التي ظهرت سنة 1855 على يد رزق الله حسون الحلبي، واهتمت بتغطية أخبار حرب القرم ولكنها نشرت الكثير عن أحوال بلاد الشام، ونددت بسياسة الدولة وهاجمتها.

لذا حاولت الحكومة القبض على رزق الله الذي هرب إلى روسيا[27].

وكانت أهم صحيفة صدرت في استانبول هي "الجوائب" لرئيس تحريرها أحمد فارس الشدياق عام 1860 التي عكست أخبار المشرق العربي، وكانت واسعة الانتشار في سورية[28].

(25) - أديب خضور، الصحافة السورية نشأتها، تطورها وواقعها الراهن، دمشق 1972، ص 52.
(26) - المرجع السابق، ص 53.
(27) - الرفاعي المرجع السابق، ص 51.
(28) - خليل صابات، تاريخ الطباعة في الشرق العربي، القاهرة 1966، ص 58.

تنبّه السلطان عبد المجيد إلى أن الصحف كثرت وزادت الطباعة في المدة ما بين 1840 ــ 1865 لذلك وخوفاً من الاضطرابات في الولايات العربية وخاصة بلاد الشام، فقد أصدر في عام 1857 لائحة لتنظيم المطابع بقوانين قد تكون رادعة، حتى لا تصبح المطابع وسيلة لاضطرابات جديدة، ثم أصدر السلطان المصلح عبد العزيز أول قانون للمطبوعات عام 1865، غير أن دمشق لم تشهد ما شهدته حلب وبيروت مثلاً لأنها كانت (عاصمة فكرية إسلامية محافظة) اهتمت بالدراسات الإسلامية والتاريخ والتراجم والأدب، فبقيت نوعاً ما معزولة عن التراث الغربي، وكانت مقصرة في السبق الصحفي، في حين كانت حلب وبيروت قد هيأتا جيلاً من الصحافيين للعمل بهما وفي المغترب[29].

لكن الأمور لم تقف عند هذا الحد، ففي سنة 1865 صدرت أول صحيفة رسمية في دمشق واسمها (سورية) وصدرت في أربع صفحات نصفها تركي بقلم "مكتوبي" الولاية، والنصف الآخر عربي كان يقوم بتحريره أحد كتاب دمشق منهم أديب نظمي ومحمد كرد علي وكانت متخصصة بنشر أوامر الحكومة والإعلانات الرسمية وليس لها علاقة بالسياسة وبقيت جريدة سورية حتى عام 1918 حينما انتهى عصر السلطنة العثمانية في بلاد الشام[30].

وهكذا استفادت الصحافة من قانون المطبوعات الذي أصدره السلطان عبد العزيز عام 1865 وتمتعت بحرية نسبية ونشط حملة الأقلام وبرز دورهم في توجيه الحكم وبث روح الثقافة الجديدة في دمشق، ولما زاد ضغط الصحفيين وتماديهم في الانتقادات الموجهة للحكومة العثمانية، صدر إعلان خاص عام 1867، احتفظ الباب

(29) - جوزيف الياس، تطور الصحافة السورية، دار النضال دمشق 1988، ص 28.

(30) - فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، جزأن، بيروت، 1945، ج1، ص 87.

العالي بموجبه لنفسه (بحق التعرض بطريق إداري ومستقل) عن سلطة القانون ضد الصحف التي ترفض المبادئ التي يجب أن تستوحيها[31].

وانتهت حرية الصحافة حين خلفه السلطان عبد الحميد في عام 1876 الذي ضيق على الصحف ونقل الوالي الإصلاحي مدحت باشا إلى مكان آخر (وكان هذا المصلح نصيراً للصحافة والمدارس والمكتبات)، وازداد سيف الرقابة على حرية الصحافة في عهد السلطان عبد الحميد، كما ازداد التجسس عليها فضلاً عن سطوة الرقيب (المكتوبجي) ومزاجيته مما أدى إلى أمرين في آنٍ واحد، عزوف المثقفين في دمشق عن تأسيس صحف وهاجر قسم منهم إلى لبنان ومصر، وكذلك شدة الرقابة على الصحف من خلال التعليمات الآتية:

1 ــ يجب على الصحف إعلام الشعب عن صحة السلطان الغالية، ومن ثم الكتابة عن تطور الزراعة والصناعة والتجارة.

2 ــ لا يجوز نشر أي مقال أو خبر قبل أخذ موافقة وزارة المعارف.

3 ــ ممنوع نشر المقالات الطويلة عن أي موضوع أخلاقي أو اجتماعي.

4 ــ ممنوع استعمال عبارة (البقية تأتي) أو (يتبع) أو (للبحث صلة) أو البقية في العدد القادم أو أي إشارة إلى أن المقال غير كامل.

5 ــ لا يجوز انتقاد الشخصيات الرسمية الكبيرة، ولا الإشارة إلى قتل الحاكم بل يكتفي بأن ينشر أنه توفي.

6 ــ لا يجوز نشر أنباء ما يحدث من ثوارت أو انتفاضات في داخل السلطة.

7 ــ لا يجوز نشر أخبار أية هزائم أصابت جيش السلطنة.

8 ــ لا يجوز نشر أسماء أعداء السلطان والإشارة إليهم[32].

(31) - انظر شمس الدين الرفاعي، المرجع السابق، ج1 ص 86.

(32) - انظر جوزيف الياس، المرجع السابق، ص 48.

ولم تكن الرقابة وحدها تسلط على الصحف بل رافقها التجسس على المحررين وفرض على الناس النفاق والازدواجية في المعايير، فازداد عدد الوصوليين في سبيل الحصول على منصب ما، لذا كان لابد من هجرة الصحفيين الأحرار إلى بلاد المغترب، مما ترك دمشق طوال ثلاثة عقود بعد انتشار الصحافة العربية دون صحافة.

أما الصحيفة الثانية المهمة التي أُسست في دمشق عام 1878 فكانت صحيفة (دمشق) لصاحبها أحمد عزت باشا العابد الذي ارتقى في السلم الوظيفي حتى وصل إلى أن أصبح كاتباً ثانياً للسلطان عبد الحميد، ونشر في هذه الصحيفة فصولاً في مآثر العرب وعلومهم وفضلهم على العالم، واحتجبت الصحيفة بعد صدورها بخمسة شهور لشواغل العابد الشخصية، وفي ولاية مدحت باشا عام 1879 استأنفت الجريدة ظهورها، وعهد مدحت باشا بكتابة قسمها التركي لأسعد أفندي أحد أبطال تركيا الفتاة، وتولى تحرير القسم العربي سليم بك عنحوري الذي كان محرر مقاولات مركز الولاية فنشر فيها مقالات سياسية وعمرانية تعزيزاً لأركان الدستور، ولما أخذ أحمد عزت باشا يسافر كثيراً بمهمات خارج دمشق فأهمل الصحيفة التي صارت تصدر دون انتظام إلى آخر عهده في سنة 1887[33].

أما المجلة المهمة (النصف شهرية) التي ظهرت في كانون الثاني 1886 لصاحبيها سليم ورضا عنحوري فهي «مرآة الأخلاق» وكانت مؤلفة من 24 صفحة تصدر دون رخصة من الحكومة، وكانت تتألف من قسمين الأول عبارة عن روايات غرامية وآداب، والثاني منوعات من كل حدب وصوب، وعلى إثر صدور العدد الأول منها حجزت عليها الحكومة نتيجة وشاية أن صاحبها يتحدى القرآن الكريم في مقالاته غير أن صاحبها بريء من التهمة ولكن شدة المراقبة حالت دون استئناف إصدار المجلة[34].

(33) - المرجع السابق، ص 58.

(34) - انظر الفيكونت دي طرازي، المرجع السابق ج1، ص 199.

وصدرت صحيفة ثانية اسمها (الشام) في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وهي صحيفة خاصة، وكانت تخدم الوالي وبطانته حتى تستطيع الاستمرار في الصدور فقد كتبت في عيد السلطان ما يأتي: «كان مبدأ ارتقاء السلطنة العظمى إلى مراتب الكمال، وسبب سعادة الملايين من الأقوام العثمانية في الحال والاستقبال، وهو يوم بشرى تجلى فيه قمر السعود من سماء عالم الشهود، فهو عندنا عيد جليل من أعظم الأعياد الواجبة التمجيد والتبجيل... وهذا مما جعل ملوك الأرض مفتونة بصفاته السنية مشغوفة بمحاسن أفكاره العلية الملوكية[35].

وضمن هذه الشروط والظروف الصعبة لم يستطع المثقفون العرب والنهضويون تأسيس صحف أو الكتابة في الصحف، والمناخ العام كان سبباً لهجرتهم إلى المغتربات، ومع صدور دستور (1908) تضاعف عدد الصحف بدمشق حتى وصل إلى /سبع وثلاثين جريدة/ عام 1915. ومثل ذلك كان حال المجلات، فبين سنوات 1886 ــ 1913 صدرت في دمشق تسع مجلات وهي: مرآة الأخلاق، الشمس، المقتبس، النعمة، الحقائق، العروس، الشعب، الناشئة وأنفس الأنفاس[36].

خامساً ــ الطباعة والمكتبات ودورهما في الحفاظ على التراث الثقافي

اخترع الألماني يوحنا غوتنبرغ (1400 ــ 1468) (Johannes Gutenbarg) المطبعة في عام 1454، في مدينة ماينز (Mainz) وأحدث اختراعها ثورة في عالم الثقافة ونشر التعليم والكتب واستطراداً في النهضة الثقافية الأوروبية[37]، لكن هذا الاختراع العظيم لم يدخل إلى بلدان الإمبراطورية العثمانية دخولاً جماهيرياً إلا بعد

(35) - جريدة سورية العدد 1030 تاريخ 1885/1/3 في المعرفة السورية ــ دمشق كانون الثاني 2008، ص 333.

(36) - اسكندر لوقا، الحركة الأدبية في دمشق 1800 ــ 1918، ص 301.

(37) -Johannes Gutenberg (1400 –1468),Wikepedia: Die Freie Enzyklopadie. 2008.s. g.

ظهوره في الغرب بأكثر من مئتين وسبعين عاماً مما أسهم في الإبقاء على تخلف هذه البلدان، ذلك أن رجال الدين حرَّموا الطباعة متواطئين مع السلاطين ونظام الحكم وعدَّوها انتهاكاً للشريعة، وزعموا عدم دقة المطبعة أمام دقة الناسخين، وخاف النساخ من البطالة وقالوا بجمال الكتابة بالنسخ، لكن المتنورين في السلطنة استمروا بالضغوط لإدخال الطباعة إلى بلاد الشام، فدخلت عام 1610، وكانت أول مطبعة سريانية في طرابلس الشام بواسطة بعض رهبان الطائفة المارونية، الذين جلبوها معهم من روما بعد انتهاء بعثتهم(38).

ثم جلب البطريرك أثناسيوس دباس عام 1706 مطبعة إلى حلب من بوخارست واقتصرت الطباعة على طباعة بعض الكتب الدينية، ولم تظهر الطباعة العربية في دمشق إلا بعد صدور فتوى من شيخ الإسلام عبد الله أفندي بإجازة طباعة الكتب غير الدينية عام 1727، وصدر فرمان سلطاني في 5 تموز 1727 يؤيد طبع الكتب العربية والتركية(39).

وحمل إبراهيم باشا إلى دمشق في أثناء حكمه لها مطبعة خصَّصها لطباعة المنشورات والأوامر العسكرية، فانفتحت أعين الدمشقيين على أهمية المطابع ونشر الكتب فاستقدم حنا الروماني مطبعة عام 1855 إلى دمشق وطبع كراس عشية الأحد سنة 1856 وكتاب المزامير سنة 1865. وأصبحت دمشق مستعدة لنشر الكتب والصحافة، وما لبثت الدولة أن أسست مطبعة رسمية عام 1864. وقد عمل فيها خليل الخوري البيروتي لتنظيم أمورها، فأدارها مدة سنة درَّب خلالها عدداً من عمال الطباعة المهرة، على فن الطباعة(40).

(38) - خليل صابات، تاريخ الطباعة في الشرق العربي، القاهرة 1966، ص 18.

(39) - حسين العودات وياسين الشكر، الموسوعة الصحيفة العربية، المنظمة العربية للأمة والثقافة والعلوم، تونس، 1990، ج1، ص 562.

(40) - مكاريوس شاهين، المعارف في سورية، المقتطف، مجلد 7، ص 569.

وكانت للطباعة العربية آثار سياسية واجتماعية على سكان دمشق، إذ إنَّها عكست مدى عزم الدمشقيين على الانفتاح والتنوع الثقافي والحداثة، وعلى الاكتشافات العلمية القادمة من أوروبا، ومدى حرصهم على إصلاح الأوضاع الاجتماعية والتعليمية الصعبة وكانت أداة الطباعة فعلاً أداة ثقافية شكلت منعطفاً حاسماً في التطور الحضاري والفكري للبشرية كلها، إذ أصبحت الكتب منتشرة ومتوفرة لكل الراغبين في اقتنائها، بعد أن كانت حكراً على فئة قليلة من المتعلمين بالأديرة والكنائس والزوايا والمدارس الدينية.

ومن هنا يبرز دور المكتبات التي سماها علماء دمشق في القرن التاسع عشر بـــ (خزائن الكتب) في الحفاظ على التراث العربي الإسلامي، يقول حبيب الزيات في كتابه (خزائن الكتب في دمشق وضواحيها): (كانت دمشق قديماً مباءة الملوك والخلفاء ومنبثق أشعة الحضارة المدنية. ولهذا ازدحمت على أبوابها في كل عصر وفود الشعراء والأدباء، وغصت أبنيتها بحلقات المدرسين وطبقات العلماء)، كما يشهد بذلك التاريخ المشهور الذي وضعه الإمام ابن عساكر عن تاريخ دمشق في ثمانين مجلداً، لترجمة من دخلها منهم أو نشأ فيها إلى أواخر المئة السادسة للهجرة خلاف ما ألحق بها من الأذيال، ولهذا كثرت فيها منازل العلم ودور القرآن والحديث وتوفرت لها خزائن الأسفار وأسواق الكتب.. حتى عدَّ منها الإمام أبو المفاخر محي الدين النعيمي مئات في كتابه الذي دعاه «تنبيه الطالب وإرشاد الدارس فيما بدمشق من المساجد والمدارس»... وقد كان في مكاتبها الوقفية من نفائس المؤلفات ونوادر الذخائر العلمية ما لعل مثله لم يجتمع في مدينة أخرى من الديار السورية والمصرية)[41].

(41) - حبيب الزيات، خزائن الكتب في دمشق وضواحيها، القاهرة 1902، ص2.

وبرز في دمشق في أثناء العصر العثماني عدد من الأسر الدمشقية المعروفة كآل الكزبري، والفرفور، وآل أبي الشامات والنابلسي والشطي والمرادي، أسهمت في رفد المكتبات بالعلوم المختلفة، وللأسف فقد تنبه الأوروبيون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ودول مثل إنكلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا وهولندا إلى أهمية المخطوطات والكتب العربية فعهدوا إلى مندوبيهم من جواسيس ومستشرقين وقناصل ورؤساء الحملات التبشيرية إلى شراء مكتبات كاملة في دمشق تحتوي على نفائس المخطوطات النادرة ونقلوها إلى أوروبا، حيث الآلاف منها موجودة في مكتبات في باريس ومدريد ولندن وبرلين وسان بطرسبورغ. وهذا يعني إكمال سرقة التراث العربي* لذا تعثر وجود الكتاب في القرن التاسع عشر، وكانت في دمشق مدرسة ومكتبة مهمة في الجامع الأموي، وقد أسهم هذا المسجد إسهاماً فعالاً في حفظ التراث العربي الإسلامي وصيانته(42).

وكانت أول خطوة إيجابية في العصر العثماني المتأخر قد جاءت مع والي دمشق مدحت باشا، الذي أسس المكتبة الظاهرية فكانت أول مكتبة عامة في دمشق، ضمت مجموعات من المكتبات الخاصة كمكتبة الخياطين والمرادية والأوقاف، والعمرية ومكتبة سليمان باشا العظم، ووصل عدد الكتب فيها إلى (3462) كتاباً في عهد الوالي رؤوف باشا سنة 1896، وكانت توجد أيضاً في دمشق وضواحيها عدة مكتبات صغيرة أخرى خاصة للأوقاف المسيحية في الكنائس والأديرة مثل مكتبات معلولا وصيدنايا وبيرود ودير الآباء اليسوعيين وتقرر أن تفتح هذه المكتبات جميعها أبوابها لعموم الناس(43).

---

* لأن جله حمله ولاة الدولة العثمانية إلى الأستانة وسواها في تركيا.

(42)- Imad E. Ghanem, Zur Bibliotheksgeschiche von Damaskus 459 – 922/ 1154 – 1519, Dissertation, Universitat" Bonn, 1969. S. 193.

(43) - محمد كرد علي، خطط الشام، ج2، ص 45.

يضاف إلى ذلك أهمية بعض المكتبات الخاصة كمكتبة الشيخ عبد الغني النابلسي والشيخ عبد السلام الشطي، والشيخ عبد المحسن المرادي ومكتبة عثمان الكردي.

خاتمة:

هدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء على الشطر الأهم من دور مدينة دمشق في صنع الثقافة بكل أطيافها، مع التركيز على المتغيرات الثقافية حسب الحراك السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري، وأظهر البعد التاريخي لمدينة دمشق بوصفها واحدة من أوائل مراكز الحضارة البشرية، ومن أهم مراكز الإشعاع الثقافي، ويكاد اسم دمشق لا يضارعه في عمقه على صفحات تاريخ المشرق العربي اسم، ولا غرو، فدمشق هي التي صنعت للعرب مجدهم وكتبت بحروف من نور باكورة تاريخهم، يوم أن كانت عاصمة الدولة العربية الأولى التي دانت لها أقطار العالم، فانضوت شعوبه تحت لوائها الخفاق، وبلغت حدودها من سور الصين العظيم شرقاً إلى الأطلسي غرباً، فكل الرّحالة والجغرافيين العرب والأجانب الذين زاروا دمشق، فتنوا بها ، وكتبوا عنها أجمل العبارات ومن أجملها ما كتبه الخوارزمي في بلاط سيف الدولة إذ قال « جنان الدنيا أربع: غوطة دمشق، وصغر سمرقند، وشعب بوان، وجزيرة الأبله، وقد رأيتها كلها وأفضلها دمشق».

خلصت الدراسة إلى أن الحياة الثقافية في دمشق قد ازدهرت في العصر العثماني المتأخر بتوفير أدوات المعرفة الجماهيرية، كالمطبعة والصحيفة والمدرسة الرسمية، وشكلت دمشق سياجاً ثقافياً معرفياً قدمت من خلاله مئات الأعلام في مجالات العلوم المختلفة والتأليف الموسوعي.

يوصي البحث بدراسة المخطوطات التي جاءتنا من العصر العثماني المتأخر، والذي ما زال القسم الكبير منه مخطوطاً ينتظر التحقيق والدراسة والكشف عن الجوانب الحضارية لمدينة دمشق، وهي في الوقت نفسه دعوة للمؤرخين والمثقفين

والباحثين عن تراث دمشق أن يكتشفوا الجوانب المضيئة في تاريخ هذه المدينة في تلك المرحلة.

وختام القول ما قاله السيد الرئيس بشار الأسد في حفل افتتاح دمشق عاصمة الثقافة العربية لعام 2008، إذ قال سيادته: « هذه المدينة ذات أسوار وأبواب، لكنها لم تغلق نوافذها في وجه الريح يوماً، فما من ريح هبت على دمشق ودخلت من نوافذها المشرّعة إلا وأخذت من روحها، فهي تأخذ خيوط النور من أي شمس كانت، لكنها تغزلها في نولها الخاص لتعيده إلى العالم بساطاً دمشقياً مزركشاً بقيم التسامح والإخاء والمحبة، إنها لا تكف عن صناعة هديتها دون أن تفقد جوهرها، تعبر عن ذاتها بكل صنوف الأدب والفن والفكر والفلسفة والتصوف والعقائد، وتتناغم فيها الأديان وتتحاب[44]».

(44) - الوطن السورية- العدد 208- 2008/1/20 .

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية:

1- جوزيف الياس، تطور الصحافة السورية، دار النضال، دمشق1988.

2-أوغلو، إحسان الدين ، الدول العثمانية تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية صالح سعداوي صالح، ط1، عمَّان 1991.

3- بريك، ميخائيل، تاريخ الشام (1720-1782)، مطبعة القديس بولس، حريصا، 1930.

4- ترجمان، سهام، يا مال الشام، الطبعة الثالثة، دمشق 1990.

5- حسن، محمد سليمان، الحركة الأدبية في دمشق(1800-1918) في: المعرفة – دمشق العدد 532 كانون ثاني 2008.

6- الحصني، محمد أديب، منتجات التواريخ، ثلاثة أجزاء، منشورات دار الآفاق، بيروت 1979.

7- خضور، أديب، الصحافة السورية نشأتها، تطورها، وواقعها الراهن، دمشق، 1972.

8- الدباغ، عائشة، الحياة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، دار الفكر العربي ، بيروت 1970.

9- رافق، عبد الكريم، تاريخ الجامعة السورية أول جامعة حكومية في الوطن العربي، دمشق2004.

10- الرفاعي، شمس الدين، تاريخ الصحافة السورية، دار المعارف، مصر د.ت.

11- الزيات، حبيب، خزائن الكتب في دمشق وضواحيها، القاهرة1902.

12- سركو، ماري، تطور مدينة دمشق الاجتماعي والاقتصادي والعمراني 1876-1908، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق2006-2007.

13 - شاهين، مكاريوس ، المعارف في سورية ، في المقتطف، المجلد السابع.

14- صابات، خليل، تاريخ الطباعة في الشرق العربي، القاهرة 1966.

15- الصواف، حسن زكي، الجامع الأموي دُرة دمشق، الطبعة الأولى دمشق2008.

16- طرازي، فيليب دي، تاريخ الصحافة العربية، جزآن، بيروت 1945.

17- طربين، أحمد، ملامح التغير الاجتماعي في بلاد الشام في القرن التاسع عشر، ط1، معهد الإنماء العربي، بيروت،1983.

18- طربين، أحمد، الحياة العلمية في بلاد الشام في القرن 13 من خلال حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر.

19- ابن عربي، محي الدين ، فصوص الحكم، تحقيق أبي العلا عفيفي، دار إحياء التراث العربية، بيروت 1948.

20- العلاف، أحمد حلمي، دمشق في مطلع القرن العشرين، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، 1983.

21- العودات، حسين، المطابع والمكتبات والصحافة في دمشق في القرن التاسع عشر، في: المعرفة- دمشق كانون ثاني 2008.

22- الغزي، نجم الدين ، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، حققه جبرائيل سليمان جبور، 3 مجلدات، بيروت 1945.

23- قجة، محمد ، دمشق والثقافة العربية في المعرفة كانون ثاني 2008.

24- لوقا، اسكندر، الحركة الأدبية في دمشق، 1800-1918، دمشق 1999.

25- المحبي، محمد، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، القاهرة، 1284هـ.

26- المنجد، صلاح الدين، ولاة مدينة دمشق في العهد العثماني ، دمشق1949.

27- نعيسة، يوسف، مجتمع مدينة دمشق ما بين 1772-1840، دار طلاس، دمشق1986.

28- النعيمي، عبد القادر محمد، الدارس في المدارس، تحقيق جعفر الحسيني، دمشق1948.

29- سجلات المحاكم الشرعية في مدينة دمشق المدة 1876-1908، وثائق غير منشورة في مركز الوثائق التاريخية بدمشق.

ثانياً- المراجع الأجنبية:

1- Johannes Gutenberg(1400-1468), Wikepedia, Die freie Enzyklopadie, 2008.

2- Imad E. Ghanem, Zur Bibliotheksgeschichte von Damaskus 549-922/1154-1516, Dissertation, Universitat Bonn, 1969.

ثالثاً- الصحف:

1- صحيفة الوطن السورية – دمشق 2008/1/20، العدد (208).

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2008/10/14.